العرب في حرب الافغان

غسان سلامة *

الحياة - ٩٠/٧/٢

■ يساورك انطباع، وانت تتابع حرب افغانستان، ان العرب ما زالوا يخوضون حرباً انتهت. دخل العرب، او بعضهم على الاقل، حرب الافغان دفاعاً عن استقلال بلد مسلم احتلته قوات اجنبية، ومجتمع اسلامي فُرض عليه نظام إلحادي، ومساحة جغرافية تفصل الخليج العربي عن القوة السوفياتية ادى احتلالها الى تقريب القوات السوفياتية اكثر من مياه الخليج الدافئة. لهذه الاسباب، الدينية والسياسية والاستراتيجية، اجمعت الاكثرية الساحقة من الحكومات العربية على التنديد بغزو السوفيات لافغانستان، وقامت بعض الحكومات بتقديم الدعم العسكري والمالي والديبلوماسي لعدد من حركات المجاهدين الافغان، بينما ذهب للحرب ضد العسكر الروسي الاف من المتطوعين العرب.

لكن هذه الحرب انتهت، بينما بعض العرب ما زالوا يخوضون غمارها. لقد تغيرت الحرب الافغانية تغيراً جوهرياً منذ فترة من الزمن، ولكن معظم العرب مازالوا ينظرون اليها كما ولو انها لم تتغير، كما لو انهم ما زالوا قادرين على خوض الحرب الدائرة سنة ١٩٩٠، كما خاضوا الحرب التي نشبت سنة ١٩٨٠. ومع انفجار الصراع فيما تسميه جريدة «البرافدا» «افغانستان الداخل» (اي اذربيجان)، ازدادت بعض القناعات العربية المتعلقة بنخوم الاتحاد السوفياتي رسوخاً، رغم تخلفها وخطاها. ومن الواضح ان تلك الحكومات العربية التي انخرطت في حرب افغانستان، ووظفت لها قدراً كبيراً من امكانياتها السياسية والمادية، تجد نفسها الان في وضع مؤذ قد يؤدي بها الى خسارة جل تلك التوظيفات، بحيث تنقلب الاوضاع الافغانية راساً على عقب، وبحيث يجني آخرون ثمرات التورط العربي الى جانب المجاهدين الافغان.

وان كان الايجاز ممكناً، ولو مع قدر من التبسيط، للقول ان الحرب على السوفيات قد انتهت، وان حرباً من النوع اللبناني المقيت قد بدات في افغانستان وشتان بين هذه وتلك. والخطر هو ان يبقى العرب يعالجون المسالة الافغانية وكانها حرب المجاهدين ضد الالحاد السوفياتي، بينما الحرب امست حرباً اهلية، بالكامل او بالكاد.

واول اعتبار يمس بالذات الحكومة الموقتة القائمة في بيشاور، والتي تعترف بها الحكومات الغربية، وتعتبرها ممثلة وحيدة للشعب الافغاني. والواقع ان هذه الحكومة، في تشاتها، تمثل المصالح الباكستانية اكثر مما تمثل فعلاً مختلف فئات المجتمع الافغاني. والاعتبار الثاني يمس اهداف وقدرات هذه الحكومة. فاولئك الذين يعتقدون ان هاجس تلك الحكومة الاوحد هو طرد نظام نجيب الله من كابول، وانها قادرة على ذلك لو شاءت، عليهم ان يعيدوا النظر بهذه الفرضية ايضا.

انما الواقع بعيد عن هاتين الفرضيتين. لقد اضطر حوالي نصف الشعب الافغاني على النزوح بسبب الحرب الدائرة في بلاده. ولكن الذين التحقوا بالمقاومة لم يكونوا بالضرورة من مؤيدي هذا الحزب او ذاك لذلك فتمثيل القيادات المقيمة في باكستان للشعب الافغاني امر مشكوك بامره. انما ذلك التمثيل قائم اساساً على كون المساعدات الذاهبة للداخل الافغاني كانت تمر بالضرورة عبر تلك القيادات المقيمة في باكستان، بينما كانت هناك قيادات اخرى شبه مستقلة في الداخل تتلقى ذلك السلاح، وتقوم بالجهاد الحقيقي وفقاً لخطط لم تكن في الاجمال تتسق مع القيادات المقيمة في باكستان. لذلك فان هذه «القيادات» المزعومة غالباً ما كانت تلعب دور الوسيط الديبلوماسي، ومكتب الاتصال الخارجي، وسمسار السلاح اكثر منه دور القائد والموجه. اما تزعيمها على الداخل فقد تم بقرار خارجي (خصوصاً باكستاني) لا بانتقاء فعلي من المجاهدين في الداخل.

ولكونهم سماسرة سلاح ومال، ولكون قاعدتهم الحقيقية في الداخل هشة، ولانهم مدعومون من الدولة المضيفة لهذا القدر او ذاك، فان «قيادات» بيشاور تمثل حكومة الوحدة الوطنية التي برزت خلال الحرب اللبنانية) متنافسون واعداء، كل واحد منهم للآخر. فبينما هم مجتمعون في بيشاور، قد يكون الرجال الذين يدّعون تمثيلهم في حال حرب دامية في الداخل. ولقد اخبرني قادمون جدد من هناك اخباراً كثيرة ذكرتني كثيراً بما آل اليه في الاجمال توزير قادة الميليشيات اللبنانية. فبدلاً من ان يؤدي دخولهم الى هيكل الدولة الى الحد من غلوائهم، والى تفاهمهم لما فيه الخير العام، ادى توزير امراء الحرب، في لبنان كما في افغانستان الى تفاهمهم على حساب الدولة، والى استمرار حروبهم في الشوارع والحارات.

وتجد في افغانستان ايضاً ظواهر اخرى للحرب الاهلية في نسقها العام. فالفئات الممثلة في حكومة بيشاور هي من المذهب السني، بينما فضلت الفئات الشيعية اجمالاً العمل انطلاقاً من ايران. والواقع ان الانقسام المذهبي حاد جداً، او هو اصبح كذلك في المرحلة الاخيرة. فنشاط الفئات الشيعية او المتكلمة بالفارسية في افغانستان ضد الاحتلال السوفياتي لم يكن يوماً بتنظيم وحدة وشراسة المقاومة التي برزت في المناطق السنية. وبتهم ممثلون لحكومة بيشاور مواطنيهم الشيعة بانهم دخلوا مع السوفيات ومع نجيب الله في نوع من البازار السياسي تم تكريسه يوم زيارة الرئيس الايراني هاشمي رفسنجاني الى موسكو من نحو سنة ومفاده ان تحالفاً ضمنياً سيقوم بين البلدين (ايران والاتحاد السوفياتي) وبين ممثليهم (تجمع الحركات الافغانية الشيعية المتمركزة في ايران من جهة وحكومة نجيب الله من جانب اخر) لمنع حكومة بيشاور من الاستيلاء على السلطة في افغانستان. وتحالف الاضداد، بل التبدل الدائم والانتهازي في التحالفات، هي كما نعلم، من مزايا الحروب الاهلية، على عكس حروب التحرير.

ضف الى ذلك ان الحكومة الموقتة في بيشاور ممزقة وفقاً للانتماءات القبلية او الحزبية. فهناك من جانب جماعتان تتبنيان الحزبية الاصولية الدينية: حزب قلب الدين حكمتيار من جانب والاتحاد الذي يراسه عبدالرب رسول سياف من جانب اخر. وتدعم المؤسسة العسكرية الباكستانية حكمتيار على حساب غيره من الزعماء، ويحضر ممثلوها باستمرار اجتماعات بيشاور، ويسلمون السلاح بالقطارة لاصحابه لكي تبقى لهم السيطرة على المجاهدين. ويحظى حكمتيار ايضاً بدعم «الجماعة الاسلامية» في باكستان وبتاييد غير حكومة عربية. ولو ان سياف هو المفضل عربياً على ما يبدو، لكن هذا الدعم الخارجي لفئة دون اخرى من شانه تعزيز الحملات السياسية على العرب داخل الفئات الاقل حظاً. وبالذات فان دعم باكستان وعدد من الحكومات العربية لسياف ولحكمتيار، بدا يفعل فعله داخل التجمعات القبلية التي لا تحظى بهذا الاهتمام، والتي بدات تتململ من «التدخل العربي المتزايد» في الشؤون الداخلية الافغانية، مما يهدد المصالح العربية بأعادة تقييم شاملة لهذه الحرب، ولضرورة تعديل الدور العربي فيها.

والامر الاوضح تعبيراً على تغيّر نوع الحرب (منذ انسحاب الجيش السوفياتي منذ سنتين بالتمام) هو التبدل الجذري في استراتيجية قواد الداخل. فبدلاً من ان تنقض قواتهم على المدن التي يسيطر عليها نظام نجيب الله، فضّل قادة الداخل الاستقرار في المناطق التي يسطرون عليها وتمكين تلك السيطرة استعداداً للبازار السياسي الداخلي المتوقع بين مختلف الفئات الافغانية. ومنذ خروج الجيش السوفياتي اقتصرت العمليات اجمالاً على عمليات قصف بالقذائف من بعيد على مواقع الجيش التابع لنجيب الله. ضف الى ذلك ان الخلافات القبلية بدات تستعر وقد ذكر لي باحث اوروبي زار قندهار مراراً ان الفئة القبلية المسيطرة على المدينة (وهي من فئة الباشتون الدراني) غير ممثلة في حكومة بيشاور ولذلك فهي غير مستعدة للتعاون مع المجاهدين. وزاد الامر تعقيدا بعد الحادثة الشهيرة التي حصلت في الصيف الماضي عندما انقضّ رجال حكمتيار على عدد من ضباط مجموعة احمد شاه مسعود، الزعيم الطاجيك، الشديد الفعالية في الحرب على السوفيات، فقتلوا منهم العشرات، مما فتح جروحاً من الكراهية العميقة بين المجموعات الاثنية.

ما العمل ان كان الوضع كذلك؟ امام الحكومات الغربية المعنية سيناريوهات ثلاثة اساسية. يقضي الاول باستمرار التدخل المالي والديبلوماسي والعسكري وكان الحرب التي بدات على السوفيات مستمرة. لكن هذا السيناريو يبدو في غاية الخطورة على المصالح العربية. فالحملات الاصولية تثير بوضوح حفيظة القبائل الافغانية التي لا تقبل ان يأتي عرب او باكستانيون ليعلّموا رجالها اصول الدين واعتبار ان السوفيات مقيمون في افغانستان ومتمسكون باحتلاله يتجاهل امراً اساسياً وهو العداء المستحكم داخل الشعب الروسي ضد التدخل في افغانستان، وهو يكاد يفوق كراهية الاميركان لتدخل حكومتهم في حرب فيتنام. لذلك فان نظام نجيب الله القائم، وعلى الرغم من المساعدات التي ما زالت تصله من موسكو، وعلى وجود مستشارين روس بالقرب منه، هو نظام قائم بقدرته الذاتية، وباللعب على التناقضات بين اعدائه، اكثر مما هو قائم بفضل الدعم الروسي ولولا حدة التناقضات في الطرف المقابل، داخلياً واقليمياً، لكان نظام نجيب الله قد سقط منذ زمان.

اما السيناريو الثاني فيقضي بوقف اي تدخل عربي، رسمي او شعبي، في حرب افغانستان. ولهذا الخيار اسبابه الوجيهة واهمها طبعاً ان حرب التحرير قد اصبحت حرباً اهلية، وان افغانستان لم يعد فيتنام السوفيات بل لبنان وسط آسيا. وبالتالي فمن الافضل عدم التدخل في الحروب الاهلية، لانه مهما كانت نواياك حسنة للتدخل، فانك ستحوّل دعمك بالضرورة الى مدد اضافي لاستمرار الحرب. لكن انسحاباً سريعاً كاملاً يبدو غير ممكن. فالراي العام في الدول العربية المعنية، والذي مال في الاجمال لتاييد مواقف حكوماته، لن يفهم انسحاباً سريعاً من المسالة الافغانية وقد يقوم من يقول انه نوع من التخلي غير المبرر عن حلفاء واصدقاء. ثم ان الانسحاب العربي الكامل من المسالة يعرّض المصالح العربية للخطر، بالنظر لانعكاسات الحرب الافغانية الكثيرة على امن الخليج، وعلى العلاقات العربية بعدد من الدول المعنية مباشرة بالمسالة وهي باكستان وايران والهند والاتحاد السوفياتي.

بقي ان نحاول تلمّس سيناريو ثالث مختلف بعض الشيء، وان كان لنا ان نقترح عناصره لحددناها كما يلي: اولاً اعتبار الحرب الدائرة حالياً في افغانستان في جوهرها منذ انسحاب الجيش السوفياتي صراعاً داخلياً على السلطة داخل مجتمع شديد التنوع اثنياً ومذهبياً ولغوياً وقبلياً وحزبياً، وبالتالي اعتبار ان حرب التحرير (المستمرة في بعض مظاهرها) لم تعد النوعية الاساس لهذه الحرب التي امست في جوهرها حرباً اهلية وصراعاً على السلطة. ثانياً اعتبار ان الاتحاد السوفياتي الذي غزت قواته افغانستان عن غير حق، واحتلته بدون مبرّر، له مصالح طويلة الامد في هذا البلد، لن يتخلى عنها يوماً، خصوصاً وان احداث اذربيجان زادت من مخاطر تفتت وحدة الاتحاد. وبالتالي فانه من غير الواقعي تجاهل المصالح السوفياتية واستمرار العمل في سبيل هزيمة شاملة وكاملة لموسكو في افغانستان. ذلك ان انسحاب السوفيات كان بالذات لتجنب هذه الهزيمة، وللعمل للدفاع عن المصالح الدفاعية للاتحاد السوفياتي في تخومه الجنوبية دون التعرض للهجوم الدائم ودون الحاجة لاحتلال شامل كامل لم يعد يرى السوفيات فائدة له لا في افغانستان ولا في غيرها من البلدان المبتلية بالحروب الاهلية.

ويقود العنصران السابقان الى ثالث هو نتيجتهما الطبيعية ومفاده انه على الحكومات العربية المعنية (وان امكن داخل اطار تنسيق عربي داخل اطار الجامعة العربية) بدء حوار حقيقي مع موسكو حول الحل الافضل للمسالة الافغانية، دون التحجج بمواقف مسبقة وبالتحالفات الجامدة. وقد يكون من الضروري ان تتمايز المصالح العربية بوضوح اكبر عن المصالح الباكستانية او عن السياسات التي تتبعها هذه الفئة او تلك. والمصالح العربية متمايزة ايضاً (ويجب ان يظهر هذا بوضوح اكبر) عن المصالح الاميركية، رغم تقاربهما الطبيعي خلال الفترة السابقة. فالاميركيون ينطلقون من قوانين الحرب الباردة، مقتنعين باستمرارها تارة وبتوقفها طوراً. اما العرب فهم اكثر حرصاً (او على الاقل يجب ان يكونوا اكثر حرصاً) على انهاء الحرب الدائرة في افغانستان باسرع وقت ممكن، لانها تدور حالياً على حساب الشعب الافغاني المسكين دون غيره.

اما العنصر الرابع والاخير فمفاده ان القوى المنخرطة في هذه الحرب، من جماعات داخلية ودول اقليمية على السواء غير قادرة على الارجح لا على وقف الحرب بصورة حقيقية ولا على حسم الصراع لصالح جماعة دون اخرى. وربما انه من الافضل للعرب، وهم ليسوا في الصدارة في هذه المسالة، ومصالحهم فيها مهمة ولكن غير اساسية (كمصالح موسكو او اسلام اباد مثلاً) العمل على حل يمر بدور فعال للامم المتحدة بحيث تقوم سلطة مركزية مقبولة، ذات امكانيات رمزية في العاصمة، مع القبول بتكريس اللامركزية الاثنية والقبلية التي افرزتها الحرب وقوّت من ساعدها عملية تقاسم الارض بين الجماعات المسلحة المختلفة والمتناحرة. فالاختلافات (العرقية وغيرها) في افغانستان اعمق بكثير مما هي في اماكن اخرى (بينها لبنان). وان كانت اللامركزية امراً قبل به اتفاق الطائف اللبناني، فانها امر اكثر ضرورة والحاحاً في بلد متنوع العرقيات، وعر المسالك، واسع المساحة مثل افغانستان. اما التوصل لهكذا حل سلمي، فانه يمر كما ذكرنا، بحوار عربي - سوفياتي، وبدور نشط لبناية شاهقة تقوم على نهر هدسون الاميركي في قلب نيويورك، يعود اليها بريقها السابق تدريجياً واسمها منظمة الامم المتحدة.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.